ذكرى حب

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب عبد الحليم محمود العشري

تأخذني رعدة رهيبة ، ويستولي عليّ أسى عميق كلما رجعت القهقرى عشرة أعوام وأحييت في خيالي ذكرى ذلك العهد البائد ، عهد شبابي الزاخر بالشقاء والآلام ، عهد شبابي الذي يطوي بين أيامه أحلى أماني ، ويلف في أكفانه السود الخفية أول حب دب إلى قلبي ، وسعدت وشقيت به نفسي !

إنني لأود الآن من قرارة نفسي أن أترك ذلك العهد جانباً ، وألا أعيد ذكراه المرة الأليمة إلى ذهني حتى لا تثير أشجان قلبي ... ولكن ... ولكن العجيب أن قلبي هو الذي يدفعني دفعاً للعود إلى هذا العهد بالرغم مما فيه من إيلام له. ولعله يفعل هذا لأنه يريد أن يعيش ثانية في جو تلك الأيام البعيدة وأن يتذوق مرة لذة ذلك الحب الهائل الذي كان يملأه حينذاك ...

وأنا ... ماذا أفعل لو خالفت رغبة قلبي ... ورغباته لما تزل كل ما أعنى به في حياتي ؟ حسن . سأطيع قلبي — وليست هذه هي المرة الأولى التي أطيعه فيها على شيء لا أحبه — ولأعد إلى ذلك العهد فانه وإن كان لا يحمل لي في ثناياه إلا الشقاء ، فان في استعادة هذا الشقاء لذة عظيمة قد لا يجدها من يستعيد عهداً سعيداً من عهود حياته ... وما أجمل أن يعيش الانسان مرة ثانية مع الماضي وفي جو الذكرى ، ذكرى حبه الأول والأخير ...

* * *

كنت أيامئذ في العشرين من عمري . وكانت دماء الشباب تجري في عروقي فتملأني قوة وفتوة ومرحاً . ولم أكن قد رأيت القاهرة ، فقد عشت تلك المدة من حياتي في إحدى المدن الصغيرة . فلما قيل لي إنني سأسافر إلى القاهرة لأتم علومي رقص قلبي طرباً وغبطة . وسهدت أياماً لعظم فرحي . فلقد كنت أسمع عن جمال القاهرة وعن أخذ أهلها بأساليب الغرب . فكانت أعز أماني أن أراها وأجوس خلال شوارعها الواسعة الطويلة التي كانت تنقص مدينتي الصغيرة

وأتيت القاهرة . ولم أعتم أن صادقت بضعة من شبانها . رحت وإياهم نغشى دور اللهو الحرام ، ونقضي جل لياليا في المواخير بين أحضان الفتيات الأجنبيات اللاتي يبعن أعراضهن لكل طارق ما دام يملك المال الذي يسد به أفواههن الجشعة ...

وصارت حياتي على هذا المنوال بضعة أشهر . ثم ابتدأت أشعر بأن هناك فراغاً عميقاً يضرب أطنابه في حياتي ، ومكاناً كبيراً ظل شاغراً في قلبي . ولم أعرف سر هذا الفراغ ولا ذاك المكان الشاغر في أول الأمر . ولكنني عند ما فكرت فيهما ملياً عرفت أنني في حاجة ماسة إلى حب أملأ به فراغ حياتي وقلبي ، وتسمو به عواطفي التي انحطت ... وتتطهر به نفسي التي دنست ...

وعجلت في البحث عن هذا الحب فقد كنت أحس بالحنين إليه يتضاعف ، بحثت عنه في كل مكان ، في شوارع القاهرة ، وفي منازل أصدقائي وحتى في دور اللهو التي كنت أتردد عليها . ولكن

هباء ذهب بحثي . فما وجدت الفتاة المنشودة . الفتاة الهيفاء القد ، الفاتنة الوجه ، الطاهرة الروح والقلب ، التي رسمت صورتها في خيالي وأحلامي مراراً ...

وبلغ مني اليأس مبلغه في العثور على حبي المرجو ... وظلت حياتي فارغة قاحلة كما هي ، حتى كانت احدى الأمسيات وكنت جالسا في شرفة الطابق المتواضع الذي استأجرته في أحد البيوت لأقضي فيه مدة إقامتي بالقاهرة ، وإذا بغادة ما رأيت وجها أجمل من وجهها ، ولا قداً أرشق من قدها ، تبدو أمامي في شرفة المنزل المواجه للمنزل الذي أقيم فيه كما يبدو الحلم الجميل في خيال النائم . فما استطعت أن أمنع صرخة خافتة كلها دهش وإعجاب

لقد كانت هذه الغادة هي نفس الفتاة التي رسمت صورتها في خيالي .. نفس الفتاة التي ستهبني الحب !

وحسبت نفسي أحلم في أول الأمر .. ولكن هذا الوهم لم يلبث أن تبدد .. ووجدتني بين يدي الحقيقة الحلوة الجميلة ..

ورأتني الفتاة فمادت في دلال من حيث أنت واختفى شبحها عن ناظري ؛ ولكنه ظل عالقا بذهني ...

ولما أفقت من غيبوبتي ولم أجدها أمامي ، عرتني انتفاضة ، وخيل إلي أنني كنت في الجنة وطردت !!

* * *

وطلقت دور اللهو . واندفعت بجميع قلبي إلى هذه الفتاة . فما كنت أغادر شرفتي إلا للحظات قصيرة . ونسيت مدرستي فكنت أذهب إليها يوما وأنقطع أياما .. ومع هذا فانني لم أرفتاتي إلا قليلا .. أربع مرات أو خمسا . وكانت في كل مرة يقع بصري على تغادر شرفتها مسرعة ؛ ولعلها كانت تفعل ذلك بدافع الخجل مني ، أو انني لا أعرف تعليلا لذلك غير هذا التعليل ..

بيد أن هذا لم يكن ليغير رأيي فيها . فقد كنت واثقا أنها هي الفتاة التي ستملأ فراغ حياتي وقلبي بالحب .. وقد كان .. ولم يخب ظني عندما ابتسمت لي يوما ..

كان هذا في الصباح على ما أذكر ، وكنت قد بكرت في الجلوس بشرفتي . وفجأة - بعد قليل - أطلت برأسها الجميل من إحدى نوافذ المنزل الذي تقطنه .. وكانت هذه أول مرة أراها فيها تطل من نافذة . فأردت أن أنتهز هذه الفرصة وأعبر لها عما أحس نحوها ولا سيما أني وجدتها في تلك المرة باسمة الثغر ، مشرقة الوجه فلم أخف على نفسي منها ، ولم أجد أفضل من الابتسام لهذا الذي أريد . فابتسمت لها . ابتسمت بسمة سكبت فيها كل قواي . وكانت مفاجأة ملأتني سعادة وغبطة حينما ردت علي بسمتي ببسمة منها . أجل وايم الحق لقد ابتسمت لي ، وابتسمت لي في اشراق وصفاء ومحبة !

لو سئلت يوماً ماهي أسعد أيام حياتي ... لأجبت فوراً أنها هي الأيام التي كانت تبتسم لي فيها تلك الفتاة . وإنني لأطوي الآن مراحل حياتي فلا أجد يوماً ذقت فيه سعادة تدانى هذه السعادة التي كنت أشعر بها تغمرني كلما ابتسمت لي . فلقد كانت بسمتها بمثابة نور يغمر حياتي . ويبدد ظلمات نفسي وكانت بعد هذا تمضي أمامي الطريق إلى حياة جديدة تقوم دعائمها على الحب ... والأحلام ...

وأنا ممن يعشقون تلك الحياة ...

فقد كانت — على الأقل — تبعدنى عن حياتى الحقيقية التى لم تكن تزخر إلا بالهموم . وكان حبى لهذه الفتاة يزداد كل يوم . وأصبح أملى أن أراها دائماً تبتسم .. تبتسم لى . فما كنت أحس بالحياة تترقرق بين جنبى إلا إذا ابتسمت لى . وما كنت أجد لذة للعيش إلا إذا لاقتنى ببسمتها كل صباح ، ولا للنوم إلا إذا ودعتنى ببسمتها كل مساء ...

ومرت الأيام مرّ السحاب وأنا لا أعلم إلى أى مصير تقودنى حياتى هذه . وزارنى يوماً أحد أصدقائى ممن كنت ألهو معهم في الماضى فما إن رآنى حتى صرخ دهشاً وهو يقول :

— قاسم ! يالله ... هل أصدق هذا ... ؟

قلت : ماذا ... ماذا تعنى ؟

قال وهو يحملق فى عينى والدهش لا يزال مرتسماً على وجهه :

— منذ كم رأيت نفسك فى المرآة ...؟

قلت : منذ قليل ...

قال : عجباً ... وهل تعرف أنك قد تغيرت ؟

قلت : كلا ...

قال : إذاً تعال ...

وجذبنى من يدى إلى مرآة كانت بالقرب منا ثم طلب منى أن أنظر إلى نفسى فيها . فلما فعلت قال :

— والآن تأمل فى نفسك جيداً وخبرنى ماذا يبدو عليك : على وجهك وجسدك ...

فهززت رأسي متعجباً فما رأيت جديداً فى وجهى ولا فى جسدى . فعاد صديقى يقول :

— أنظر إلى عينيك جيداً . ألا ترى كيف ذبلتا ... أنظر إلى وجهك ألا ترى كيف شحب . أنظر إلى جسدك ... ألا ترى كيف نحل ؟

ونظرت إلى عيني ، ثم إلى وجهى وجسدى ، وعندئذ أجفلت والدهشة تعقد لسانى . فقد وجدت صديقى على حق فى ملاحظاته . ووجدتنى قد تغيرت حقاً . . . وتغيرت كثيراً . . .

وعجبت كيف لم أفطن إلى هذا من قبل ... وظللت حزيناً للتغير الذى طرأ علىّ أربعة أيام أو خمسة لا أذكر ... ثم عدت أتابع حياتى ... الحياة التى تقوم دعائمها على الحب والأحلام ، وتملأها بهجة وجمالا بسمة فتاة ...

ودرجت الأيام مجدة فى طريقها المجهول الذى لا يعرفه إلا الله .. إلى أن كان يوم من أيام الصيف رهيب الجو حار الهواء راكده . وكنت جالساً كعادتى في الشرفة أنتظر بسمة فتاتى التى احتجبت فى ذلك اليوم فلم تبد لى حينما دخلت على صاحبة المنزل الذى أسكنه — بعد أن استأذنت علىّ — وقدمت لى برقية باسمى وصلت إلى المنزل منذ ثوان . وكان ما فى هذه البرقية مروعاً أليماً .. أليماً جداً .. حتى تمنيت لو مت قبل تلاوتها ..

كانت البرقية من أمى تقول لى فيها إن أبى قد مات فجأة ليلة الأمس « بالسكتة القلبية » وتطلب منى أن أعود إلى مدينتى سريعاً لألتحق بعمل عثرت لى عليه هناك حتى أعول أسرتنا بعد أن مات أبى الذي كان يعولها ...

وأظلمت الدنيا فى عينى .. وأخذنى ذهول عميق

أين أنت الآن يا فتاتي لتبتسمى لى ، ولتبددى ببسمتك بعض ما عرانى من الهم والحزن ؟ ... أين

أنت لتعيدى ببسمتك إلى قلبى بعض الأمن والاستقرار ؟

ولكن أحداً لم يجب ... وسقطت على راحتى بضع قطرات من العرق كانت عالقة بجبينى !

* * *

وكان يوماً مشهوداً من أيام حياتى هو ذلك اليوم الذى حزمت فيه أمتعتى لأبارح القاهرة ...

أقسم أننى ذرفت كثيراً من الدموع فى ذلك اليوم ... ولعمرى ما ذرفت هذه الدموع حزناً على والدى الذى مات ، كلا بل حزناً على فتاتي التى سأخلفها بعد قليل ... وعلى بسمتها التى كانت تملأ حياتى بهجة وجمالا .. ثم .. ثم على حبى وسعادتى وكل منهما سيذوى !

وخلفت المنزل وفى قلبى لوعة وأسى . وما كدت أقف على أرض الشارع وأرفع رأسى إلى النافذة التى اعتاد وجه حبيبتى أن يطالعنى منها كل يوم حتى وجدتها تطل منها وعلى فمها نفس البسمة الساحرة التى كنت أحس وأنا أتلقاها منها بالحياة تترقرق بين جنبى ، وفى يدها زهرة صغيرة كانت تداعب بها حافة النافذة فى هدوء ...

طار عقلى من رأسى فى تلك اللحظة . ولم أعد أسيطر على قواى . وتعالى صوتي مدوياً حزيناً وأنا أقول لها بجرأة عجبت — فيما بعد — كيف توفرت لى:

— لاتبتسمى يافتاتى ، فانى مسافر إلى مدينتى ؛ مسافر الآن ولن أعود ...

ونظرت إليها فإذا بها تنظر إلى فى دهش وذهول ، وإذا ببسمتها قد تلاشت ، وكأنما محتها تلك الدموع التى رأيتها تنحدر من عينيها على شفتيها ووجدت يدها تضغط على الزهرة فى قوة فتناثرت بضع ورقات منها على الأرض التقطتها فى الحال ووضعتها بين صفحات كتاب كان فى يدى

وعند ما تحولت لأسير سقطت على يدى من عل قطرة من دموعها ... من دموع تلك الفتاة التى أحببتها ، والتى خلق منى حبها إنساناً جديداً يختلف عما كنت فى الماضى كثيراً . فلم أستطع أن أمنع نفسى أنا أيضاً من البكاء ، وكان بكائى مراً مكتوماً

* * *

أنا خجول .. خجول جدا . واعترف بأن خجلى كان هو السبب فى أننى لم أعرف إلا الآن .. إلا متأخرا ... أن تلك الفتاة التى أحببتها تحبنى أيضا . فكثيرا ما فكرت فى أن أسألها من شرفة الطابق الذى كنت أنزل فيه : هل هى تحبنى أولا . ولكنى كنت أخجل فأظل جامدا مكتفيا بالبسمات التى أتلقاها منها فى كل يوم ..

كان حبى عجيبا ، ولا أدرى كيف استطاع أن يعيش إلى تلك اللحظة وإلى ما بعدها وهو قانع بتلك البسمات ..

آه لو كانت هذه الجرأة التى استطعت بها أن أخاطب حبيبتى ، ومن شارع قد يمر فيه عابر فيسمع كلامى قبل الآن ؛ إذاً لاستطعت أن أجنى ثمار حبى ، ولكن الخجل . . . أضاع منى الفرص السوانح وأضاع معها سعادتي !

* * *

لا أعرف كيف استطعت أن أعيش فى مدينتى بعد أن عدت إليها ، ولكن الشىء الذى لن أنساه هو أننى كنت أحيا فيها كالغريب عن هذا العالم . كنت أحيا فيها كطائر شارد تائه فى بلد لا يعرفه ولا يعرف أحدا فيه . وكانت حياتى تسير على وتيرة

واحدة وأسلوب واحد : من بيتى إلى مقر عملى ، ومن مقر عملى إلى بيتى ، لم يجد فيها يوما جديد

وانكببت على عملى أحاول أن أفنى فيه نفسى لأنسى ، ولكن الذكريات كانت تلح علىّ دائماً فلا أستطيع أن أطردها عنى إلا بعد أن تجول الدموع فى عينى .

ولطالما تراءت لى بسمتها من وراء تلك الدموع فملأت قلبى حسرة وألما ، لأنها كانت تبدو لى فى كل مرة حزينة شاحبة تمحوها شيئا فشيئا عن الشفتين اللتين ارتسمت عليهما .. دموع !

ووجدتنى يوما أدخر بعض الجنيهات التى أتناولها فى كل شهر من عملى . وكنت أسأل نفسى كثيرا لم أدخر هذه الجنيهات وأنا فى أشد الحاجة إليها. فما كنت أجد ردا شافيا . . إننى أدخرها وكفى . .

وما إن مضت ثلاثة أعوام حتى كنت قد ادخرت مبلغاً من المال لا هو بالكبير ولا بالضئيل وبعد أيام من سرور هذه الأعوام الثلاثة كنت فى طريقى إلى القاهرة ... لم ؟ لأخطب فتاتى إلى أهلها بعد أن حاولت فى تلك الأعوام الثلاثة التى مرت أن أسلوها فلم أستطع !

وهبطت إلى أرض القاهرة مهدحبى ومسرحه، وما إن قاربت الحى الذى كنت أقيم فيه حتى هاجتنى ألوف الذكريات ... وجدت الحي كما هو ... كما تركته منذ ثلاثة أعوام وبضعة أيام . ودنوت شيئاً فشيئا من دار الفتاة التى أحببتها فى كل هذا الوجود وطغت علىّ سعادة غريبة لا عهد لى بها ، واشتد وجيب قلبى وازدادت دقاته . . ووجدت «بواب» الدار فى (كشكه) الصغير كما تعودت أن أراه فى الماضى . ولم يكن قد طرأ عليه تغير ما ، إلا تلك الشعرات البيضاء التى عمت رأسه ولحيته وشاربه . ومالت عليه أسأله قبل أن أخطو إلى داخل الدار :

— هل سيدتك الصغيرة هنا ؟

فلم يبد عليه أنه فهم سؤالى . فشرحته له . وعندئذ بدا على وجهه أنه فهم ما أرمى إليه . فغمغم قائلا فى صوت أبح ظهر فيه شىء من الاضطراب :

— أتعنى ... المرحومة « اعتماد » ؟

كانت كلمته صدمة قوية كادت أن تذهب بعقلى؛ فاعتماد هذه هى حبيبتى بعينها ، فقد سمعت أمها يوما تناديها بهذا الاسم . جمت أطراف شجاعتى وصرخت فيه بصوت لا أدرى كيف خرج من حلقومى :

— وهل ماتت ؟

— من عام ...

— كيف ؟

— مرضت . . . ولكن أحداً لم يعرف سر مرضها . وكل ما نعرفه أنها كانت تهذى كثيراً فى أيامها الأخيرة . وقد سمعتها أنا بنفسي وهى تهذى قائلة : « لقد كنت أحبه ... وقد مضى ... سافر إلى مدينته ولن يعود . فما فائدة الحياة من بعده » وكثيراً ما حاول أهلها أن يعرفوا هذا الذى كانت تحبه . ولكنهم أخفقوا ... وماتت سيدتى اعتماد وسرها فى صدرها

وأحنى الرجل رأسه على صدره فى حزن وقال :

— رحمها الله ...

وفهمت كل شىء ... فتوليت من أمامه فى

خطوات ذاهلة وأنا أتمتم فى ذهول وقد اعترانى شبه خبال :

— أجل ، رحمها الله ...

وسرت كثيراً لغير وجهة فى ذلك اليوم ... وأخيراً عند ما أفقت من ذهولى بعض الشىء — وجدتنى فى القطار المسافر إلى مدينتى

وكان أول ما فعلت عندما عدت إلى منزلي فى المدينة أن تناولت الكتاب الذى كنت أضع بين صفحاته الورقات التى تناثرت من تلك الزهرة التى كانت فى يد « اعتماد » يوم أن بارحت القاهرة عقب وفاة أبى ... وأخذت واحدة منها وضعتها على كفى وكانت قد جفت ... تماماً كما جفت حياتى فى ذلك اليوم الذى عرفت فيه أن فتاتى قد ماتت . وخيل لى وأنا أنظر إليها أن وجه « اعتماد » قد رسم عليها .. ورأيت فمها وعليه تلك البسمة التى ربطتنى بالحياة مدة طويلة . ولكنها كانت تبدو لى شاحبة حزينة تمحوها شيئاً فشيئاً عن الشفتين اللتين ارتسمت عليهما — دموع !

وغابت البسمة وغاب الوجه .. وخيل لى أنى أسمع هاتفاً يهتف فى صوت كئيب خافت ، ولكنه هادئ رهيب :

— « لقد كنت أحبه وقد مضى .. سافر إلى مدينته ولن يعود . فما فائدة الحياة من بعده ! .. »

وأعدت ورقة الزهرة إلى مكانها بين صفحات الكتاب ... ودمعت عيناى !

عبد الحليم محمود العشيرى

الملابس القطنية الخفيفة
هى
ملابس الصيف القائظ
تشكيلات جميلة رائعة . ومنسوجات مختلفة مغرية
وألوان ساحرة أخاذة
تقدمها اليكم
شركة مصر للغزل والنسج
إحدى مؤسسات بنك مصر